مؤسسة الشيخ عمي سعيد
ثقافة . تربية . تراث

الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي [ت 927 هـ /1521 م]
إلى الشيخ حمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

المحاضرة الرابعة:

التربية الإسلامية
مفهومها – أهدافها – فلسفتها

إعداد:
سماحة الشيخ احمد بن حمد الخليلي

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وولي المتقين، وهادي المسترشدين سبحانه خلق فسوّى، وقدّر فهدى وله الحمد في الآخرة والأولى، أحمده حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، كما هو له أهل وكما أثنى على نفسه سبحانه لا أحصي ثناءً عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيّدنا ونبيّنا محمدًا عبده ورسوله أرسله الله هادياً ومبشرًا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا فبلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمّة وكشف الله به الغمّة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدّين، أما بعد:

فالسلام عليكم مشايخ العلم وطلبته وجميع الإخوة الحاضرين ورحمة الله وبركاته، أحيّيكم بهذه التحية الطيّبة المباركة وأُضمِّنها تحية إخوانكم بعمان الذين تخفق قلوبهم بذكراكم وتهشّ للقياكم فأنتم في سواد أعينهم وسويداء قلوبهم، وهم يُحمِّلونني وأنا أرحل عنهم هذه التّحايا إليكم أحسست بمشاعرهم تجاهكم ولا ريب أنّكم جميعا تحسّون بهذه المشاعر فإن القلوب تناجي القلوب، وليس بينها وسائط فأترك القلوب للقلوب، هذا وإنني لأشكر أخانا وأستاذنا العزيز الشيخ أحمد الذي قدّم هذه المقدّمة وألبسني فيها ما لا أستحق من الأوصاف فأنا لست هنالك ولم أبلغ شيئا من هذه المنازل وإنما هي عين الرّضا التي هي عن كل عيب كليلة نظرَني بها فتخيّل مساوئي محاسن حتى قال فيّ ما قال، وإنني أستغفر الله وأتوب إليه من كل ما قيل فيَّ مما لست له أهله، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلني مع حسن ظنّكم،.. حديثُنا في هذه الأمسيّة المباركة عن التربية الإسلامية وأهدافها ووسائلها، وماذا عسى أن أقول عن التربية وقد جئت إلى معقل التربية، فهنا التربية، هنا المكان الذي جاء العلم يأرِزُ إليه كما تأرِزُ الحيّة إلى جُحرها، فنبغ هنا العلماء الربّانيون الذين بصّروا الناس بأمور دينهم ودَعَوْهم إلى رشدهم وبصّروهم بطاعة ربهم وألّفوا المؤلفات الكثيرة التي لا نزال بفضل الله سبحانه وتعالى نستنفع بها، وماذا عسى أن أقول في هذا المهرجان العظيم الذي عُقِد من أجل مُرَبٍّ عظيم، مربٍّ جاء من بلد بعيد إلى هذا البلد مُهاجرا إلى الله، لأنّه جاء لينشر العلم وليؤسِّس التربية وليبنيَ أمّة، فلذلك كانت ذكراه تتجدّد في القلوب قرنا بعد قرن، وعاما بعد عام، ويوما بعد يوم، ومع هذا الاحتفال بشيخنا المربّي الكبير عمي سعيد - رحمه الله- يأتي الاحتفال أيضا بحفيده الذي سار على نهجه وقام أيضا بدور التربية كما سمعنا خير قيام، وهو شيخنا الحاج حمو بن موسى عمي سعيد رحمه الله، قام بدور التربية ولا يُنكر مثل هذا، فقد قيل الولد سرّ أبيه، والولد هو بضعة من أبيه كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخير يتسلسل في أبناء أهل الخير، وقديما قال الشاعر العربي:

بنو الصّالحين الصّالحون ومن يكن   لآباء صدقٍ يَلقَهُم حيث سيَّرا

وقد قال أحد شيوخنا بعمان وهو من شيوخ الشريعة والأدب :

"ولا غرو من تلك العصيَّة للعصى وهل نجباء القوم إلا بنو النُّجُب " ،

فالخير يتسلسل في أبناء أهل الخير جيلا بعد جيل ونرجوا بفضل الله تعالى وبجهود المربّين أن يتسلسل هذا الخير، ولكنّني أعتذر إليكم مرّة أخرى عمّا سوف أقوله لأنه لا يعدو أن يكون كما قيل كحامل التمر إلى هجر ، أو كما قال الشاعر الذي ذكرت شعره من قبل :

كالبحر يُمطره السحاب وما له   فضل عليه لأنّه من مائه

فأنا بضاعتي كما قلت أول مرّة هي بضاعة مسجاة، وما قيل عنيّ إنما هو من باب حسن الظن بي ، ومن باب النّظر إليّ بعين الرّضى ، فالتربية على أيّ حال يجب أن يتحدّث فيها المربُّون الذين خَبَرُوها من شتىّ وجوهها ، وسَبَروا أغوارها وأبعادها فعلموا معانِيَها ومرامِيَها أمّا رجل ضعيف مثلي فيجب أن يكون قوله قاصرا عن التربية ، وإنما أذكر فيها ما قاله أهل العلم مما وفقني الله تبارك وتعالى للإطّلاع عليه لأن الكلمة أو العنوان.. عنوان هذه المحاضرة: التربية الإسلامية حقيقتها وأهدافها ووسائلها، العنوان يتضمّن التربية ويتضمّن فَهمَ الإسلام، ما هو الإسلام؟ حتىّ تُنسب إليه هذه التربية، وكيف تكون هذه التربية تربيةً إسلاميةً؟ ذلك يتوقف على فهم الإسلام الصحيح الذي هو مَعقِد أمر هذه التربية ومناطها ؛ التربية من ربَّى يُربي وكثير من العلماء قالوا بأن ربّ وربّا بمعنى واحد ، يُقال ربَّه يَرُبُّهُ إذا قام بأمره وتولاَّه ، ومنه وصف الله سبحانه وتعالى بأنه ربُّ العالمين ، لأنّه يتولَّى أمر عباده ، فهو سبحانه وتعالى يُربِّي عباده بما يُربيهم به تكوينًا ونعمةً وإفضالًا وهدايةً وإرشادًا ، يربيهم أوّلاً بتكوينهم إذ يخرجهم من العدم إلى الوجود ، فهو في جميع مراحل تكوينهم يربيهم سبحانه وتعالى بما يربيهم به من ألطافه ، فالإنسان الذي كان نُطفة مَهينةً حقيرةً بحيث كان خليةً لا تكاد تبصَر حتىّ بأشعة المجهر ، ثم تدرّج في أطوار التربية الإلاهية في الرّحم طورًا بعد طور حتى خرج بشرًا سويًّا إنما كان الله سبحانه وتعالى يربيه في جميع هذه المراحل وفي جميع هذه الأطوار ، ثم بعد ذلك ربَّاه الله سبحانه وتعالى بإلهامه ، وربّاه سبحانه وتعالى بإنعامه ، وربّاه سبحانه بهدايته ، كل ذلك ممّا يدخل في التربية أو يدخل في معنى ربَّ يرُبُّ ، ومن شواهد مجيء ربّ بمعنى قام بشأنه قول الشاعر :

وكنتُ امْرَأً أفضت إليك رِبَابَتي   وقَبلك رَبَّتْنِي فضِعْتُ رُبُوبُ

ومما يذكر عن أبي سفيان أنّه بعدما دخل في الإسلام في عام الفتح وحصل بعد ذلك في غزوة هوازن ما حصل ، وهو لا تزال فيه ترسّبات من الفكر الجاهلي والحميّة الجاهلية ، وحصلت تلك الهزة للمسلمين في

غزوة هوازن، فرح بذلك وشمَتَ بالمسلمين وقال أين ذهب السّحر اليوم، وكان يسْتقسم بالأزلام رجاءَ أن ينتصر الكفار في هوازن على المسلمين، وكان يعلم أميّة في ذلك الوقت لا يزال على ملّة الجاهلية ولكنّه أخذته الحميّة القُرَيشِية، فقال لأبي سفيان: في فيك الكِثكِث لأن يَربُّنِي رجلٌ من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن، يعني أن يتولّى أمري رجل من قريش ويشير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرٌ لي من أن يتولّى أمري رجل من هوازن، فلذلك قالوا بأن ربَّ وربَّا بمعنى واحد، وعلى هذا فربّى من مادة ربَى يربُو كأربَى، وذهب قُطب الأئمة - رحمه الله- في تفسيره الهميان إلى أن أصل ربَّا ربَّبَ تضعيفًا لربّا، إتيانا لهذه المّادة على وزن التفعيل على وزن فعّل يَفعِّل تفعيلًا، ربّب يربِّب تربيبًا، ولكن كراهة أن تجتمع ثلاثة حروف من جنس واحد قُلِبت الباء الأخيرة ياءً، فقيل ربَّى يُربِّي تربيةً، هذا الذي ذهب إليه في هميان الزاد وليس ذلك ببعيد فإن مجيءَ مثل هذا معهود في كلام العرب؛ ولئن كانت التربية هي بمعنى تولِّي أمر المرَبَّى، وتنميةُ ما عساهُ يكون فيه من مواهب وما يكون فيه من فضائل، سواء كانت مكتسَبَة أو كانت فطريّة، فإن هذه التربية تدور حول محور واحد كما يقول خبراء التربية حتّى من غير المسلمين، فإن خبراء التربية من غير المسلمين قالوا بأنّ التربية إنما ترتكز على إثبات نظريةٍ سبق الإيمان بها، فلابد من أن تكون هنالك نظرية سبق الإيمان بها فتُنمَّى هذه النظرية وتُقوَّى هذه النظرية، ولذلك ترتبط التربية بالقيم الروحية ولئن كان هؤلاء ينظرون إلى هذه التربية بهذه المنظار مع كون قِيَمِهم إنَّما هيَ قِيَم الوحْل والتّراب، فإنّنا أولى بأن نُحافظ على معنى التربية في الإسلام لأن قيمَنا إنّما هي قِيمٌ مُنزّلة من السّماء، فهي ترتبط بالروح تمام الارتباط، قيمُنا ليست نابعة من حياتنا الأرضية التي نشارك فيها الحيوانات، وإنما قيمُنا منَزَّلة من السّماء لإخراجِنا من الظّلمات إلى النّور، وهذه التربية عندنا إنّما تُضاف إلى الإسلام أو تُوصف بالإسلام، فيُقال تربية الإسلام، أو التربية الإسلامية، وعندنا أن كل تربية يجب أن تكون دائرة حول محور الإسلام مهما كانت صنوف هذه التربية، لكن القاعدة التي تقوم عليها إنما هي قاعدة الإسلام، فلننظر إلى الإسلام، ما هو الإسلام؟ الإسلام هو دين الله تعالى الحق، الذي لا يرضى من عباده غيره، هو الدّين الذي أرسل به جميع المرسلين، فمن الخطأ أن نعتقد بأن الإسلام جاء به سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحده، إنما الإسلام جاء به جميع المرسلين، وشواهد ذلك في القرآن الكريم كثيرة جدا، فالله سبحانه وتعالى حكى عن نوح عليه السلام أنه قال: (... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، وقال عزّ من قائل في إبراهيم عليه السلام: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، وقال: (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ

أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وبيّن تعالى أن إبراهيم عليه السلام وصّى بوصية الإسلام بنيه كما وصّى بذلك حفيده يعقوبُ عليه السلام إذ قال (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) وقال حاكيا أيضا دعاء إبراهيم و إسماعيل عليهما السّلام وهما يرفعان قواعد البيت العتيق (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ...) والحق سبحانه وتعالى يبيّن لنا أن التوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام إنّما كان المتمسّكون بها متمسّكين بالإسلام (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ...) ويقول تعالى في قرية لوط (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) وحكى عن يوسف عليه السلام أنه قال (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)، وحكى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه (... يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ)، وحكى عن سحرة فرعون بعد أن آمنوا أنهم قالوا (... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)، بل حكى تعالى عن فرعون نفسه أنه ادّعى الإسلام بعد ما أدركه الغرق (...حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، وذكر أهل الكتاب الذين كانوا متمسّكين بالكتاب غير مفرطين فيه ولا عادلين عنه، كانوا مستبصرين به في حياتهم فقال (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) أي كانوا من قبل أن ينزّل القرآن على نبيّنا صلى الله عليه وسلم على ملة الإسلام لأن الإسلام إنما هو أن يُسلم الإنسان وجهه لله تعالى، وذلك بأن يُسلم روحه وجسمه وعقله وقلبه وضميره وغرائزه، ويُسلم كل شيء منه لله، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) فمعنى هذا إذن أن الإسلام هو أن يسلم الإنسان لله تبارك وتعالى كل شيء في حياته، إذ الإسلام لا يعني أن يكون منحصرا في المسجد وحده بل المسلم هو مسلم في جميع أحواله، مسلم في بيعه وشرائه، في منعِه وعطائه، في سِلمِه وحربه، في رضاه وغضبه، في مكرهه ومنشطه، في كل جزئية من جزئيات حياته إذ يطبِّق الإسلاَم الحنيف؛ ولئن كان الإسلام جاء به جميع المرسلين من عند الله سبحانه إذ هو دين الله تعالى الذي لا يرضى من عباده غيره كما قال: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ...) وقال: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي

الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) فإن هذا الإسلام يتمثّل في شرائع، هذه الشرائع تختلف باختلاف الأزمان واختلاف الظروف واختلاف ملابسات هذه الظروف، فلذلك جعل الله سبحانه وتعالى من فضله لعباده شرائع متنوعة، فكلّ رسول من رسل الله سبحانه وتعالى جاء بشريعة إما أن تكون هذه الشريعة شريعة مبتدأة وإما أن تكون مؤكِّدة لشريعة من قبله من الرسل، هذه الشرائع تختلف باختلاف الأزمان كما ذكرنا، أما الدّين فواحد، وهذا ما يدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (نحن معاشر الأنبياء بنو علات) ومعنى كونهم بني علات أن أباهم واحد وأمهاتهم متعدّدة وهذا بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم إذ قال: (ديننا واحد وشرائعنا متعدّدة) فلكلّ رسول شريعة من الشرائع، هذه الشريعة تضُم العبادات وتضُم الأحكام، كل ذلك مما يدخل ضمن الشريعة بحسب ما يعلم الله سبحانه وتعالى من مصالح عباده، والإسلام يتمثّل في هذه الشرائع جميعا، وجاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالإسلام على أتمّ وجوهه، وأوسعِ مداخله ومخارجه، وأدقِّ حكمه وأحكامه، وأشمل لطفه ومعارفه، جاء الإسلام شاملا لكل ناحية من نواحي الحياة بعد ما بلغت الإنسانية رُشدها فكانت بحاجة إلى مثل هذه الشريعة التي يتمثل فيها هذا الدّين الحنيف، فإذن النبي صلى الله عليه سلم إنما جاءنا بالإسلام الدّقيق الجامع، تسرَّب إليه أيّ خِلَّة من الخلل في أي وقت من الأوقات وما علينا إلا أن نسلم لهذا الإسلام، وهو عليه أفضل الصلاة والسلام ربانا بهذا الإسلام هذه التربية تتمثّل في التزكية، التي أخبر الله تعالى بها في كتابه عندما قال عز من قائل: (لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ) فالنبي صلى الله عليه وسلم بُعث إلينا مُعلما ومزكيًّا، وقد امتن الله سبحانه بهذه النّعمة العظيمة على عباده العرب الأميين الذين كانوا أوغل الناس في الضلالة قَدَمًا، وأعماهم عن الحقّ بصيرة، قبل أن يكرمهم الله تعالى بهذا النور، إذ قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) فإذن النبي صلى الله عليه وسلم هو على رأس المربّين من البشر جاء ليربينا بهذه التربية التي يربّي الله تبارك وتعالى به عباده، إذ هي منزَّلة من عند الله سبحانه وتعالى، والنبي صلى الله عليه وسلم كان حريصا على هذه التربية في جميع الأحوال، كان حريصا على أن يربيَ الشخصية الإسلامية المتميِّزة بالهوية الإيمانية بحيث تتمثَّل هذه الهوية في كل جزئية من جزئيات حياة المسلم حتى يكون المسلم مظهرُه ومخبره، وسرّه وعلانيتُه وقوله وعملُه تجسيدا للإسلام الحق، هكذا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ النبي صلى الله عليه وسلم حرص على هذه التربية ولا ريب أنّنا ونحن كلنا ننتمي إلى سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هو إمامُنا وقائدُنا ومربِّينا

لجديرون بأن نحرص على ما حرص عليه صلوات الله وسلامه عليه، بحث نربي أنفسنا ونربي أولادنا ونربي من استطعنا أن نربّيه من أمتنا على هذه التربية التي ربّى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تربية قويةٌ راسخة لذلك كان المؤمنون الذين ربّاهم النبي صلى الله عليه وسلم في تلكم العصور السحيقة كانوا مثلا أعلى للإنسانية بأسرها، بحيث بهروا العالم بأسره فكان كل من تحدّث عنهم تحدّث عنهم مُعجَبا بأمرهم حتى ألدّ خُصومهم وهم في حال منازلتهم في ميادين المعركة كانوا يتحدّثون عنهم بإكبار وإجلال، فعندما كانت الهزائم تلاحق جيش الروم وكان هذا الجيش يتقهقر أمام المسلمين اجتمع هرقل عاهل الروم بقادة جيشه من أجل دراسة أسباب الهزيمة، فسألهم: كيف حال هؤلاء القوم الذين نازلوكم في ميادين المعركة، فقال له أحد القادة هم رهبان بالليل وفرسان بالنّهار لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه. وقال آخر أمّا الليل فرهبان وأما النهار ففرسان يريشون النبل ويُرونها ويُثقِّفون القنا لو حدَّثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لما على من أصواتهم بالقرآن والذكر، وهذا ما جعل حتىّ المنصفين من المستشرقين يتحدّثون عنه بإعجاب وإكبار فنجد مثلا **قوست أفلوقون** المستشرق الفرنساوي يقول ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب، هل العرب في جاهليتهم كانوا بهذه الرحمة، هل كانوا من طبيعتهم هذه الرحمة؟ لا، كانوا قساةً، كانوا سباعا ضارية، يأكل قويهم ضعيفهم ويعدوا كبيرُهم على صغيرهم، وإنما خُلقت فيهم هذه الرحمة بهذه التربية الإيمانية التي ربّاهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) يشهد الله عليهم أنّهم كانوا من قبل ذلك في ضلال مبين، ولكن هذه التربية الإيمانية هي التي رفعتهم من الحضيض الأسفل إلى القمم العالية فكانوا مثالا أعلى للإنسانية بأسرها، وكان من بينهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو معظمهم من بين هؤلاء العرب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أثنى الله عليهم في كتابه الكريم والذين ضربوا أروع الأمثال للإنسانية في التضحية والفداء كما يدلّ على ذلك كتاب الله فالله سبحانه وتعالى يقول (لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) ثم يقول (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، نعم هكذا كانت تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات أثر كبير في نفوس هؤلاء.

هذه التربية أورثتهم الاعتزاز بقيم الإسلام، ولذلك لم يكونوا مبهورين أمام ما يجدونه عند الآخرين، لم يستهوهم بريق هذه الحياة الدنيا، ولم يخدعهم ما كان عليه أعداءُهم من اشتغال بهذه الحياة الدنيا، حسبكم تلك القصّة قصّة ربعي بن عامر رضي الله تعالى عنه عندما أرسله سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه إلى رستم القائد الفارسي عندما طلب التفاوض مع المسلمين، فأرسله سعد ومعه عشرون راكبا واستعدّ رُستم للقائهم بمظاهر الزينة والبهرجة بحيث صفَّف الكراسي الذهبية المنمّقة بالأحجار الكريمة، وصفَّف النمارق المطرزة بالذهب وبسط الزّرابي المنسوجة بالذهب، ولما جاء ربعيّ لم ينزل عن حِصانه حتى وطء بحوافره تلك الفرش، ثم ربطه ببعض تلك النّمارق وجلس إلى جنب رستم، فقال له ما الذي جاء بكم، قال له إن الله قد ابتعثنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جَوْر الأدياد إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، هنا يتحدّث أحد المفكرين الإسلاميين في هذه الكلمات القليلة التي أجاب بها ربعي رستم، فيقول هذه الكلمات لو وُضعت على الجبال لتَدَكْدَكَت، ولو وُضعت على البحار لتبخّرت، وليس الغرابة فيها أن يقول بأن الله قد ابتعثنا لنُخرجكم من جور الأديان إلى عدل الإسلام لأنّه لا ريب أن الأديان التي كانوا يعتنقونها كانت أديانا جائرة، مكَّنَت الجبارين من رِقابهم ولم يفكّ أغلال هذا التمكين إلا الإسلام عندما اتبعوه، ويقول كذلك لا غرابة في قوله: من عبادة العباد إلى عبادة الله، - وهي جملة سابقة- لأن أولائك كانوا خاضعين لملوكهم وأباطرتهم حتى أنهم كانوا يؤلِّهونهم، وهذا أمر معروف فإنَّ خِصرُ الذي بُعث في عهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الإمبراطور الفارسي كان ممّا يُقال في تمجيده في نشيد يُرَّدد:

في الآلهة إنسان غير فان، وفي النّاس إله ليس له ثان، ارتفع اسمه وتعالى مجده، يطلع مع الشمس بضيائه، وينير الليالي المظلمة بنوره.

هكذا كانوا يقولون، فإنهم يؤلهون أباطرتهم، وإنّما الغرابة في قوله: ومن ضيق الدّنيا إلى سَعة الدنيا، قبل أن يقول إلى سعة الآخرة فلو أنه اقتصر على سعة الآخرة لما كان في ذلك غرابة، لأن الدنيا لا تساوي شيئا بجانب الآخرة، إذ الدنيا لوكانت من ذهب وكانت الآخرة من تراب، لكانت الدنيا هينة حقيرة بجانب الآخرة لفناء الدنيا وخلود الآخرة، فكيف والدّنيا أرخس من التراب والآخرة أغلى من كل غال، فلذلك ما كانت في ذلك غرابة لو قال من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ولكن لماذا قال ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ذكر سعة الدّنيا قبل أن يذكر سعة الآخرة، فقال إن هذا إنما يرجع إلى أن ربعي رضي الله تعالى عنه كان ينظر إلى أحوال أولائك الفُرس المجوس الوثنيين كما ينظر أحدُنا إلى كلبٍ في قفص من ذهب

ويُقرَّب له الطعام في آنية الذهب أو الفضّة وكذلك الشراب ويُربط بسلسلةٍ من الذهب، فإنه مهما يكن من أمره لا يحسد على ذلك ولا يتمنىّ أحد منا أن يكون مكانه، فهو قبل كل شيء حيوان دنيء ثم هو بجانب ذلك هو أسير وفي قفص، هو مشدود بسلسلة سُلبت حرّيته، فأيّنا يتمنى أن يكون في مكانه، فهكذا كان المسلمون ينظرون إلى أولائك، لأن أولائك كانوا أُسارى لعاداتهم وتقاليدهم وشهواتهم وغرائزهم، ومن أدلّة ذلك أن **يزدجرد** لّما خرج هاربا من سيوف المسلمين وكان قد اسطحب معه ألف طبّاخ وألف خادم آخرين وألف قيّم على الصقور والطيور وأمثالها، وألف مغن كان يقول إنّني في حالة يرثى لها حيث إنني لم أخرج إلا في هذا العدد النزر اليسير من الخدم، فأنا في حالة مهينة، وعندما عطش في طريقه وتوسّمت امرأة فيه الشّرف وقدّمت إليه السُّقيا قال إنّني لم أشرب قطٌّ إلّا مع أغنية تصحبُ شرابي، فقال أيُّ أسْرٍ أعظم من هذا الأسر، رجل يصبح في حالة لا يستطيع فيها أن يُسيغ شربة ماء في حلقه إلا مع أغنية؛ هذه حالة هي خارجة عن الحرّية الذي ينشدها الإنسان السويّ الفطرة، فالإسلام رفع من شأن المسلمين ولم ينظروا إلى هؤلاء إلّا هذه النظرة إذن التربية يجب أن ترتكز على بناء الشخصية الإسلامية وتمييز الهوية التي تُميّز هذه الشخصية عن بقية الشخصيات.

وللمسلم في حياته رسالة عظيمة، هذه الرسالة هي: أن الله سبحانه وتعالى جعله داعيًا، وبذلك يتميّز بحيث يرشد الحائرين، ويبصّر العمي، ويفتِّح القلوب الغلف، بما آتاه الله سبحانه وتعالى من إيمان وعلم وحكمة، فكل واحد مطالب بذلك (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ...) هذا الإيمان بأن المسلم مسؤول عن هذا العالم بأسره مسؤول عن هداية الناس وتبصيرهم بأن لهم ربًّا يُحاسبهم على ما قدّموا وأخّروا، وأن طاعته سبحانه وتعالى واجبة عليهم، تبصيرهم بذلك من واجباته، فلذلك كان يجب عليه أن يكون في موقف القوّة، وفي مركز القيادة لبقية البشر، بحيث يؤثّر ولا يتأثر، ويقود ولا ينقاد، وهذه الفلسفة أدركها أحد فلاسفة الإسلام من غير العرب وصاغها ببيانه الرائع بلغة أعجمية وهي اللغة الأردية، ولكن عرّبها بعض الخبراء باللغتين وبيّن كيف صاغ كلماته عندما عبر عن وظيفة المسلم في هذه الحياة ذلكم هو الشاعر الإسلامي الكبير الشاعر الباكيستاني محمد إقبال، فإنه قال في مسؤولية المسلم: **إن المسلم لم يُخلق ليندفع مع التيّار ويساير الرّكب البشري حيث اتجه وستار، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتجاهه ويُملي عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب الحق اليقين، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامُه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة، مقام الإرشاد والتوجيه، مقام الآمر الناهي، ولئن تنكّر له الزمان وعصاه المجتمع**

وانحرف عن الجادّة لم يكن له ليخضع ويضع أوزاره ويُسالم الدّهر، بل عليه أن يثور عليه وينازله ويضل في صراع معه وعراك حتى يقضي الله في أمره، إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاصرة والأوضاع القاهرة من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي فهو نفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد. هذه الكلمات قُلت أكثر من مرة بأنها جديرة بأن تكتب بماء من الذهب، ولكن يجب أن نحوّل معناها إلى واقع حي في حياتنا، إلى واقع ملموس في حياتنا، بأن نكون دائما حريصين على أن نكون في موقع القوة لا نكون مندفعين وراء مختلف التيارات، تُملَى علينا إرادة غيرنا فنسمع ونطيع ونُوَجَّه فنتّجه ونُنهَى فننتهي ونُأمَر فنأتمر، لا إنّما الأمر أمر الله تعالى ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، فعلينا أن نجعل سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نُصب أعيننا ومِلأ أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وعقولنا وأفكارنا، بهذا نكون حقّا قد تربينا التربية الإسلامية التي ربّى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، ونحن نرى في كتاب الله سبحانه وتعالى كيف يأمرنا القرآن أن تكون للمسلم الشخصية المستقلة لا يتأثر بالآخرين، لننظر إلى هذه الآيات من سورة المائدة، فالله تعالى يقول: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)** يحذّرنا من هذه الموالاة، هذه الموالاة ليست هي مجرد حبّ عميق في النفس، وإننا إذا تحرِّرنا من هذا الحب تحرّرنا من هذه الموالاة، هذه الموالاة تكون بالتبعية العمياء لغير المسلمين وترَسُّم خطواتهم واتباع آثارهم والله سبحانه وتعالى عندما يحذّرنا من هذه الموالاة يبين لنا أنها لا تنشأ إلا عن مرض نفساني إذ يقول: **(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ، وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ)** ثم في هذا السياق نفسه يحذّر من الارتداد، لأن هذه الموالاة تدعو الإنسان إلى التخلّص من الإسلام، شيئا فشيئا يحاول أن يترَسَّم المسلم خطوات الآخرين ويدع كل يوم شيئا من الإسلام تحببا إلى الآخرين وتودُّدًا إليهم، حتى يكون قد انسلخ من الإسلام تماما، فلذلك في هذا السياق نفسه يقول الله سبحانه تحذيرا من الارتداد: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)** ثم في هذا السياق نجد أن الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا من يجب أن يحصر المؤمن ولاءه له، فيقول: **(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)** ثم يبين عاقبة ذلك أن هذه الموالاة تشدّ المؤمنين بعضهم إلى بعض وتربط بين قلوبهم وتجعلهم

أقوياء أمام الآخرين فيقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾؛ نعم، من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون، هؤلاء الذين يتولّون الله ورسوله، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ هذه هي صفات المؤمنين الذين يستحقّون حقًّا نصر الله سبحانه وتعالى وتمكينه الذي وعد به عباده المؤمنين؛ وكما قلت النبي صلى الله عليه وسلم حرص كل الحرص على تربية أصحابه على هذه الروح الإيمانية والنهي بهم عن الروح الانهزامية أمام الآخرين، فلذلك كان من حرصه عليه أفضل الصلاة والسلام على هذه التربية أنّه يحذّر المؤمنين من كل ما يمت بصِلةٍ إلى الكافرين، فنجد في أوامره لهم، يقول لهم افعلوا كذا خالفوا اليهود، خالفوا اليهود والنصارى، خالفوا المشركين، خالفوا المجوس، يحرص على مخالفة هؤلاء لتتربّى الشخصية الإسلامية المتميّزة التي لها تأثيرها في حياة الأمّة بل وفي حياة الناس جميعا، لأن هذه الشخصية المتميّزة التي تتمتّع بهذه الروح القوية هي التي تؤثر على جميع النّاس، الناس الذين دخلوا في الإسلام ما دخلوا إلا لأنّهم وجدوا المسلمين أقوياء، فيهم هذه الروح القوية التي تجعلهم مستعلِين على غيرهم علُوَّ اعتزاز بالصلة بالله تعالى لا علُوَّ استكبارٍ على خلق الله؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم كما قلت كان حسّاسًّا جدًّا من أن يتأثر المسلمون بالآخرين ولذلك كان من حرصه على النهي بهم على الروح الانهزامية أنّه كان في يوم من الأيام في حالة دفن وكان واقفا، والوقوف أمر طبيعي في حياة البشر، القيام والقعود وجميع الحركات، هذه سنّة من سنن هذه الحياة، فكان النبي صلى الله عليه وسلم في حالة هي جزء من سنن هذه الحياة، ولكن عندما مرَّ حبْرٌ من أحبار اليهود بهم وقال هكذا نصنع يا محمد، قعد النبي صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه بالقعود وقال خالفوهم، خالفوهم، فكانت سنّة أن يقعد المسلم في حالة دفن الميت لأن لا يتأثّر بمسلك اليهود، فنحن ونحن نواجه الآن هذه الأزمات والأمم تداعت علينا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا أمن قلّةٍ يا رسول الله، قال لا إنكم كثير ولكنّكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليقذفنّ الوهن في صدوركم)، نحن في هذه الأزمة ونحن نواجه هذه الأمم التي تداعت علينا كتداعي الأكلة على قصعتها؛ بأي شيء يمكن أن ننقذ أنفسنا من هذه الورطة إنما هي بهذه التربية، أن نربي أنفسنا بهذه التربية التي ربّى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأمة، وتربّى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسُه على عين الله سبحانه وتعالى، كيف والنبي صلى الله عليه وسلم لم يسمح لنفسه أن يتقهقر قيد أنملة عن موقفه الصامد عندما قال له عمّه أبي طالب

أبق على نفسك وعليّ، قال له يا عمُّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه، كانت فيه هذه الثقة بالله سبحانه وتعالى وبمبادئ الإيمان التي آمن بها والتي كان يدعوا إليها، فهل نحن عند هذا الموقف، على أي حال أنا لا أريد أن أدخل في قضايا جزئية، كل واحد منا عليه أن يحاسب نفسه، لكن هناك قضية مشتركة، هذه القضية وقعت الأمة فيها بأسرها جميعا، علينا أن نحاسب أنفسنا فيها، علينا أن نعرف من نحن؟ وإلى من ننتمي؟ وبمن نسترشد ونستهدي؟ وبمن نقتدي في هذه الحياة؟ علينا أن نعرف الأسوة التي بين أيدينا، أنا أسمع وأقرأ دائما التواريخ التي تؤرخ حتى لكبار علماء الإسلام وما يسجّل عن تراجمهم من لدُن ولادتهم إلى وفياتهم وإذا بهذه التواريخ كلّها تكتب بالتاريخ الميلادي وإنما أحيانا يُقرن التاريخ الهجري مع التاريخ الميلادي على استحياء هذه القضية وإن ظهرت أنها قضية شكلية ولكنّها في الحقيقة قضية جوهرية لأنها قضية ترتبط بالعقيدة، ترتبط بميلاد هذه الأمة، ترتبط بتاريخ هذه الأمة، ترتبط بعزة هذه الأمة، ترتبط بوجود هذه الأمة وحياتها، هذه الهجرة هي هجرة من؟ هي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم هي هجرة أصحابه رضي الله تعالى عنهم الذين ضربوا أروع الأمثلة في للأخوة الإيمانية وقضوا على جميع الفوارق بينهم حتى كانوا إخوة في ذات الله سبحانه وتعالى، هذه الهجرة هي التي جسَّدت قيم هذا الدّين الحنيف، هذه الهجرة هي التي كانت ميقاتا لميلاد هذه الأمّة بعد ما كان المسلمون مغمورين بالكثرة الكاثرة من الأعداء الذين كانوا متسلّطين عليهم، وكانوا يتحكّمون في أمورهم، فلمّا هاجروا بمشيئة الله سبحانه وتعالى كانت لهم دولة، كانت لهم حياة، كانت لهم عزة، كانت لهم كرامة، فلأي شيء لا نحرص على الاعتزاز بميقات هذه الهجرة التي وُلدت أمتنا بها، لماذا لا نحرص كل الحرص على ذلك، على أن هذه السنين الهجرية إنما هي تدور مع الأشهر القمرية، والأشهر القمرية هي مناط العبادة، عبادتنا لله سبحانه وتعالى، حسب مواقيتها نصوم، وحسب مواقيتها نحج، وحسب مواقيتها نزكي، وحسب مواقيتها تكون عِدد نسائنا، وحسب مواقيتها يكون أمد التربّص في الإيلاء وفي سائر المواقيت، مع أن الله سبحانه وتعالى يُخبرنا أنها هي المواقيت التي اختارها لنا منذ خَلَق السماوات والأرض، إذ الله سبحانه وتعالى يقول: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ...) نعم هذه المواقيت اختارها الله سبحانه وتعالى لنا منذ خلق السماوات والأرض فلماذا نعدل عنها إلى غيرها، ويقول سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...) ومما يؤسف له أننا وجدنا الناس حتى الذين يتخصصون في المجالات الشرعية كثيرا ما يعمى عليهم التاريخ إلا عندما يرجعون إلى التاريخ الآخر التاريخ

الميلادي، كم من أحد متخصّص في الشريعة الإسلامية يسألني عن حدث ما، فأقوله في عام كذا، فيقول يصادف أيّ عام ميلادي، هو الأصل ما عرف الأصل الذي هو تاريخ أمّته وتاريخ سلفه من الصحابة والتابعين، وإنما يريد أن يعرف هذا التوقيت أو هذا التاريخ بالميلادي حتى يستطيع أن يعرف الوقت بل ليس كذلك فحسب، وصل الأمر بالناس إلى أن تخفى عليهم الشهور التي هي مدار العبادات ومنا ط العبادات ومواقيتها خفاء تاما. في شهر شعبان المنصرم جاءني رجل مسلم من بلد مسلم شقيق وهو ينوي السفر إلى الحج فقال لي في أي شهر يكون الحج؟ فقلت له في شهر ذي الحجة، فقال متى شهر ذي الحجة؟ فقلت له عندما يهلّ هلال شهر ذي الحجة فقال ومتى يكون ذلك؟وفي أي شهر؟ قلت ذلك في ميقاته، فقال لي: ولكن يصادف أي شهر؟ فقلت له هو في نفسه شهر.. لا يحتاج أن يصادف شهرا، قلت له نحن الآن في شهر شعبان ثم يأتي بعد شهر شعبان شهر رمضان ثم يأتي بعد شهر رمضان شهر شوال، ثم يأتي بعد شهر شوال شهر ذي القعدة، ثم يأتي بعد ذلك شهر ذي الحجة فاحسب حسابك ومع ذلك بقي في عمًى من أمره، ما استطاع أن يتصور متى يكون الحج وهو يريد الحج، هو ينوي نية الخير ولكن هذه هي التربية، رُبِّي هذه التربية بعيدا عن معرفة مواقيت الإسلام ومواقيت العبادات إلى هذا الحدّ كان أثر هذه التربية في نفوس أبناء هذه الأمة، فإذن علينا أن ننتشل هذه الأمّة من الضياع ولا ريب أننا إن استمررنا على ذلك قد تأتي الأجيال المقبلة لا تعرف شيئا قط: لا عن تاريخ الأمة الإسلامية ولا عن العبادات نفسها لأنهم يعيشون بعيدين كل البعد عن الحقيقة، يعيشون دائما في الوهم وفي الخيال، ولا ريب أنني ألوم جميع الأمّة على التخلي، مع أن هذه الأمّة عاشت طيلة ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن إلى منتصف القرن الرابع عشر الهجري ما كان المسلمون يؤرخون بالتاريخ الميلادي، ولو تتبعت حتى رسائل الذين كانوا يعيشون في أوربا في ذلك الوقت من المسلمين كانوا يؤرخون بالتاريخ الهجري، إلى منتصف القرن الرابع الهجري، وإنما الغزو الاستعماري أثَّر علينا هذا الأثر فطمس بصائرنا واستولى على قلوبنا واحتلها، ولئن كنّا تحررنا من الاستعمار فإن علينا أن نتحرَّر من كل توابعه، ومن كل علائقه، نحن أمة لنا تأريخنا، لنا كياننا، لنا شخصيتنا، لنا مقوماتنا، فعلينا أن نحافظ على ذلك، قد يقول قائل بأن هذا التاريخ هو تاريخ ميلاد نبي من الأنبياء فلماذا نتحامل عليه هذا التحامل؟ ولماذا نريد أن نتخلص منه؟ نعم نحن نقول جميع أنبياء الله سبحانه وتعالى هم على العين والرأس، لا نفرق بين أحد منهم، نؤمن بهم جميعا ونحن أولى بهم من غيرهم، ولكن هناك أمور لابد أن ننظر إليها بالمنظار السليم الصحيح، أوّلا: هذا التاريخ لا يدور مع الأشهر التي هي مناط العبادات عندنا، - هذه واحدة- ثم إننا متعبَّدون بأن نكون أتباعا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأن شريعته

ناسخة للشرائع السابقة، وعلينا أن ننتمي إليه حق الانتماء، وأن نعتزّ به تمام الاعتزاز، ومع هذا كلّه أيضا فإن كون هذا التاريخ هو ميلاد عيسى عليه السلام لم يأتنا به وحي، ونحن لسنا على ثقة من ذلك لأن هذا مما وصل إلينا من قبل الآخرين حتى التاريخ بميلاده في الشهر الثاني عشر في اليوم الخامس والعشرين من الناس من يشكّك في هذا التاريخ فكون هذا التاريخ هو ميلاد عيسى عليه السلام لسنا على ثقة منه، ونحن ندرك تمام الإدراك أن النبيّين جميعا هم أتباع للنبي صلى الله عليه وسلم لأنّهم أعطوا العهد عند الله تبارك وتعالى إن عاشوا حتى مبعثه أن يؤمنوا به (وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ) فنحن نؤمن بأن هؤلاء النبيين لو عاشوا إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم لكانوا متعبدين جميعا باتباعه وهذا ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه حيث قال: " لو كان موسى بن عمران حيًّا لما وسعه إلا اتباعي" هذا، ومع هذا كله أيضا نحن نرى كيف تربية الله لعباده في التمسّك بما كان عليه النبيون من قبل، الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأمة وريثةً للأمم السابقة في مقدّساتها ووريثة للنبوات السابقة في هداياتها، ولكن ذلك يأتيها من طريق الوحي لا من طريق الاستعمار، أو طريق الجاهلية، فلذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يورّث هذه الأمة تعظيم البيت الحرام الذي هو أول بيت وُضع للناس لم يورثهم ذلك من طريق الجاهلية، فإن العرب كانوا في جاهليتهم يعظمون البيت الحرام، وكان من الشّاق والصّعب عليهم أن ينصرفوا إلى غيره ولكن الله تعالى امتحنهم وابتلاهم عندما أمرهم أن يتوجّهوا إلى بيت المقدس ليمتحن أولا قلوبهم وإيمانهم، ثم ليورِّثهم مواريث النبوات جميعا، ثم بعد ذلك ليورثهم تعظيم البيت الحرام عن طريق الوحي لا عن طريق آبائهم الجاهليين، فقد صرفوا عن الاتجاه إلى البيت الحرام وأمروا أن يتّجهوا إلى بيت المقدس، وبعد أن انقطعت صلتهم بالجاهلية وعرفوا أن الأمر إنما هو أمر الله والطاعة لله سبحانه وتعالى واجبة والانقياد لأمره لابدّ منه والإذعان إلى حكمه هو دليل إسلامهم له، بعدما رسخ ذلك في نفوسهم، واستقر ذلك في قلوبهم، أنزل الله سبحانه وتعالى عليهم ما أنزله ممّا يأمرهم فيه أن يتوجهوا إلى البيت الحرام، فاستقر الاتجاه إلى البيت الحرام وقد قال تعالى: (... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ ...) وهذا إذن يجعلنا إذن نُدرك أنّ اتباعنا للآخرين وأنّ قبولنا للتاريخ الذي وُرِّد إلينا من قِبل الآخرين وفُرض علينا من قبل الآخرين إنما هو ينافي ما أراده الله سبحانه وتعالى من اعتزاز هذه الأمة بالوحي واستمساكها بمواريثها الإيمانية من غير أن تفرّط في أي شيء منها، فإذن هذا التاريخ كما قلنا هو من مخلفات

الاستعمار، فرضه علينا فرضا وربَّانا عليه حتّى نسينا تاريخنا، وصار منا من يجهل مواقيت العبادات التي فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين، هذه التربية إنما غايتُها كما قلت تربية الشخصية الإسلامية وبناءُ مقوماتها الحضارية فكرية، واجتماعية، حتى تكون هذه الشخصية شخصيّة مستقلّة لا تتأثر بالآخرين وإنما تؤثر على الآخرين لأنها على هدى من الله، تحمل إلى عباد الله رسالة الله سبحانه، كيف يكون التأثير بهذه التربية؟وما هي وسائلها؟ أهم وسيلة من وسائل التربية هي ترسيخ الإيمان، والإيمان لا ريب أنه مؤثر في حياة الناس الفكرية والعملية، يحوّلهم من مسلك إلى مسلك آخر، ودلائل ذلك في كتاب الله، كيف نرى التحوّل الذي حصل لعباد الله المؤمنين من حالة كانوا فيها إلى حالة انتقلوا إليها، هؤلاء سحرة فرعون كيف كانوا ينظرون إلى الحياة قبل إيمانهم؟ إنما كانوا ينظرون إلى الحياة بمقدار المنافع المادية وما يكسبونها وراء ذلك من مناصب يتعالون بها ويفتخرون بها ولذلك أخبروا عن مطمعهم المادّي عندما سألوا فرعون: (...أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟) وقد أدرك فرعون أنهم كانوا يطمحون إلى ذلك ويطمحون أيضا إلى مناصب يفاخرون بها، فلذلك ردَّ عليهم بقوله: (... نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)، ولكن بعدما خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان قلوبهم تحولوا من وضع إلى وضع آخر، تحوّلوا من موضع مادي ينظرون إلى الحياة بهذا المنظار المادّي إلى وضع هم على نقيضه بحيث قالوا لفرعون: (... لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) هذا الإيمان هو الذي حولهم من طبع إلى طبع، كأنما نُشروا بعدما طُوّوا بطباع غير طباعهم، وأفكار غير أفكارهم، وعقول غير عقولهم وقلوب غير قلوبهم، كانوا أمّة أخرى وهكذا كان العرب كانوا قبل الإسلام على وضع ولكن بعد الإسلام تحولوا إلى وضع آخر ناهيكم بما قاله سبحانه وتعالى فيهم وهو أصدق القائلين: (... وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) كانوا على ضلالة وكانوا يجسدون الضلالة بكل معانيها، حيث كان أحدهم يعبد إلها يصنعه بنفسه ولربما كان إلها من الحلوى أو التمر، فإذا جاع انقلب عليه وأكله، هكذا كانت سخافة عقولهم وإذا بهم يتحولون إلى أمّة أخرى، يقودون العالم ويفتحون العالم ويقودون الأمم المتحضرة بهذه القيادة الحكيمة التي ما عرف لها التاريخ بديلا قط حتى تحدث من تحدث عنها، وتحدث من تحدث عنهم كانوا أرحم الفاتحين، نعم الإيمان هو الذي حولهم كيف تأثير هذا الإيمان؟ لا ريب أن كل ركن من أركان الإيمان الستّة التي ذُكر خمسة منها في آية البر في سورة البقرة وذُكرت أيضا متفرقة مبثوثة في آيات أخرى، وذُكر السادس في آيات أخرى من القرآن و جمعها حديث جبريل عليه السلام، كل ركن من هذه الأركان له أثر كبير ولكن أعظم هذه الأركان: الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك لأن من آمن بالله قد آمن بمُبدئه الذي أخرجه من العدم إلى

الوجود، والذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، والذي مكّنه من هذه الأرض وجعله مستخلَفا فيها والذي سخَّر له منافع هذا الوجود بأسره، فحري به أن يطيعه في جليلة وحقيرة من أمره، حري به أن لا يخالفه في كل ما أمره وفي كل ما نهاه لأنّه يؤمن تمام الإيمان أنه لن يأمره إلا بما فيه مصلحتُه ولا ينهاه إلا عن ما فيه مفسدته، ثم يأتي بعد ذلك الإيمان باليوم الآخر لأن من آمن باليوم الآخر آمن بالمعاد الذي يجزى فيه بكلّ ما قدم وأخر خيرا كان أو شرا، فالإيمان بالله واليوم الآخر هما الجناحان اللذان يطير بهما المؤمن إلى آفاق العمل الصالح، وإلى آفاق الأخلاق الفاضلة، وإلى آفاق الخير بجميع أنواعه، ولذلك نجد التأكيد بالإيمان بالله واليوم الآخر في معرض التأكيد لأوامر الله ونواهيه في القرآن فالله سبحانه يقول (... لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...) وقال: (... يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...) ويقول: ... وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...)، وهكذا يتوالى ذلك في القرآن الكريم وأيضا في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، كم نجد في السنة النبوية من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يفعل كذا، (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته)، (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره) تكرّر من أجل تأكيد الأوامر والنواهي، لأنّ من آمن بالله واليوم الآخر استعلى على رغبات ونزعاتها، فهو بإيمانه بالله سبحانه وتعالى يدرك تمام الإدراك أنّ ربه سبحانه الذي خلق هذا الوجود كله والذي هو مصرّفه ومدبره، وهو الذي أنعم عليه بهذه النعم الظاهرة والباطنة حريٌّ أن يُطاع في كل ما أمر به ونهى عنه، كيف وإن الإنسان إنما يحب غيره من خلق الله سبحانه وتعالى لأحد أمرين فهو يحبّ غيره حبا جما يملك مشاعر نفسه وأحاسيسها عندما يكون ذلك الغير متفوقا عليه في ناحية من النواحي، فالجاهل ينظر إلى العالم نظرة إكبار ونظرة حب لأنه يراه متفوقا عليه، والضعيف دائما ينظر إلى القوي نظرة إكبار وتقدير لأنه يراه متفوقا عليه، ويكون هذا الحبّ نابعا من إحساسه لأنه أسدى له يدا بيضاء يجب عليه أن يشكرها، لأن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، ولئن كانت هذه هي الفطرة في البشر تجاه بعضهم البعض فإنّها أولى أن تكون راسخة عندما يكون الأمر متعلقًا بالله، كيف والله سبحانه وتعالى هو ربّ العالمين الذي (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)، ثم إنه سبحانه هو الذي أنعم علينا بالنعم ظاهرها وباطنها صغيرها وكبيرها، وأمّا إذا جئنا إلى اليوم الآخر فإن إيماننا بالله واليوم الآخر هو الذي يحرّرنا من رقّة أسر شهواتنا، واتباع غرائزنا، الإيمان باليوم الآخر هو الذي يجعل الإنسان يستعلي على ما في نفسه من شهوات دنيئة، ومن غرائز تقعد به، لأنه إذا آمن باليوم الآخر آمن

بالمعاد الذي يُلقّى فيه جزاءه، وكل أحد يحبّ الخير لنفسه وأي خير أعظم من السعادة العظمى في الدار الآخرة التي إليها المنقلب والمعاد، لأجل هذا كلّه كان رسوخ الإيمان بالله واليوم الآخر أقوى العوامل وأكثرها تأثيرا في حياة الناس، فلذلك يجب أن ترتكز التربية على الإيمان بالله واليوم الآخر مع الإيمان بما يجب علينا الإيمان به فنحن نؤمن بالنبيين وهم قدوتنا ومثلُنا الأعلى وأيّنا لا يحب أن يقتدي بالنبيّين الذين جعلهم الله سبحانه وتعالى مثالا لصفات الكمال لأنهم أوفر البشر عقولا، وأسماهم فكرا، وأنورهم بصيرة، وأحسنهم سيرة، وأطهرهم سريرة، ومع هذا كلّه فإن أجلّ النبيين جميعا الذي جاءت رسالته مهيمنة على رسالاتهم، وكانت رسالته رحمة للعالمين فعلينا أن نحرص على الاقتداء التام برسول الله صلى الله عليه وسلم وعلينا أن نحرص بالاقتداء بالمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، نحن على أي حال أحوج ما نكون إلى هذه التربية مع الحرص على طلب العلم النافع، الذي يُبصّرنا بأمر ديننا ودنيانا، هذه الأمّة يجب أن تكون أمّة قويّة من حيث إنّها يجب أن تكون أمّة علم لا أمّة جهل، وأمة رقيّ لا أمة انحطاط، وأمّة قيادة لا أمّة اتباع، هذه الأمّة يجب أن تكون في مقدمّة الأمم في كل ناحية من النواحي، ونحن نرى كيف ربّى الإسلام سلفنا الصالح وجعلهم يبتكرون العلوم، لذلك أنا أناشد المسلمين جميعا وأناشد أهل الاستقامة بصفة خاصة، وأناشد أهل هذا البلد بلد العلم والعلماء بصفة أخص، أن يحرص الكلّ منا جميعا على هذه التربية على تنشئة الأجيال نحن بحاجة إلى علماء مربّين يعرفون كيف يقودون هذا العالم إلى طريق الخير، العالم ألآن بأسره هو على مفترق طريقين: إما أن يسقط في هاوية لا ينقذه منها منقذ، وإما أن يتبع طريق الإسلام، وهذا أدركه الكثير ممن خبروا الإسلام وعرفوه من غير الذين اعتنقوه، الغربيّون أنفسهم يصرّحون بهذا، الذين تخلوا عن الشيوعية يصرحون بهذا، عندما تخلى **قوربتشوف** عن الشيوعية أجريَت عنده مقابلة، كان عنده لقاء في فضائية بريطانية في فسُئل: هل تعتقد أن الشيوعية يمكن أن تستمر في الفيتنام وفي الصين؟ قال كلّا هي ميّتة ولا يمكن أن تستمر، قيل له وما البديل؟ قال لا أعتقد أن البديل في الرأسمالية ولا في الاشتراكية ولا في الديمقراطية وإنما هو في نظام آخر فعلينا أن نتكيف وفق حضارة جديدة، وقد قلتُ يومها في درس التفسير أي حضارة يعني؟ أهي حضارة عبّد البقر ؟ لا إنما هي حضارة الإسلام وإن لم يصرّح بها، وجاء بعد بضع سنين من هذا التصريح الذي صرّح به **قوربتشوف** الشيوعي الراديكاليّ المتعصّب **كاسترو** فأعلن بأنه لم يبق أمام العالم إلا النموذج القرآني، ونجد الغربيين أنفسهم يصرّحون بهذا، ذكر رجل مسلم من أمريكا كان قبل إسلامه صاحب منصب عال في البيت الأبيض حتى أنّه كان كبير مستشار الرئيس نيكسون للسياسة الأمريكية الخارجية، كان اسمه **روباتكرين** ولما أسلم صار فاروق عبد

الحقّ ألقى محاضرة.. في شهر ذي الحجة عام1415هـ ..في مجمع أبي النور بدمشق بحضور المفتي العام لسوريا الشيخ أحمد كفتار والذي كان في ذلك الوقت هو المفتي العام لسوريا وكانت محاضرته بعنوان: القيادة الإسلامية في القرن الحادي والعشرين، وعلى أي حال في هذه المحاضرة ذكر الأوضاع الأمريكية وأن أمريكا تسير بخطى حثيثة إلى الدمار، ما لم يُنقذها الإسلام وعندما قامت الحرب التي سمّتها أمريكا الحرب على الإرهاب، وهي على رأس الإرهاب،.. كان عنده لقاء في صحيفة عمانية وهي جريدة مندوب الوطن في واشنطن فيما أحسب.. كان لقاء يملأ صفحتين من جريدة الوطن، ذكر أن الإسلام قادم على رغم أنوفهم مهما يكن من أمر، وفي محاضرته التي ألقاها شهادات من كثير من الغربيين الذين لم يعتنقوا الإسلام بأن الإسلام هو الحل الأمثل، ومن بينهم **نيكسن** نفسه قبل أن يموت، وكذلك **برجنسكي** مع كونه يهودياً، وهو صانع السياسة الأمريكية الحديثة ذكر الأوضاع الأمريكية وقال بأنها تسير بخُطًى حثيثة إلى الدمار، وبيّن أنّ مصير الاتحاد السوفياتي هو الذي ينتظرها، ومقال هذا نُشر في صحيفة أمريكية وحلّله أحد الصحفيين يسمّى **نتان قالورز** ووضع فيه النقاط على الحروف، وهو أيضا رجل يهوديّ، ولكن مع ذلك وضع النقاط على الحروف وقال بأنّه يشير إلى قيام الإسلام، فإذن الإسلام قادم قادم بمشيئة الله تعالى، وإنما العالم بأسره ينتظر مسلمين أقوياء يقودون هذا العالم على كلمة الله ويبصّرونه بأمر الله سبحانه وتعالى ونحن بحاجة إلى قيادات عارفة كيف تقود هذه الأمم إلى طريق الحق، قيادات مستبصرة بنور الإيمان، قيادات متشبّعة بروح القرآن، قيادات تأخذ بزمام قافلة هذه الإنسانية إلى ما فيه سعادتها، فنرجو بمشيئة الله تعالى أن تصنع هذه القيادات عندكم، وأن تهتموا بها كلّ الاهتمام، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق.